الاستيطان الصليبي في فلسطين

د. مصعب حمادي نجم الزيدي[*]

يعد موضوع الاستيطان الصليبي في فلسطين من المواضيع المهمة التي تعالج مسألة الوجود الصليبي في الاراضي الاسلامية المحتلة، وتكمن اهميته في كونه يسلط الضوء على طبيعة حركة الاستيطان الصليبي ودور القوى السياسية والدينية في اقامة العديد من المستوطنات بهدف تنفيذ الاهداف الاستعمارية ومخططاته الرامية الى الاستيطان والاستقرار بشكل دائمي في الاراضي المقدسة، وعليه يمكن توضيح ذلك من خلال النقاط التي تصدى البحث لمعالجتها وهي كما ياتي:

١. نقص العنصر البشري وتشجيع الهجرة.

٢. دور الملوك الصليبيين في تأسيس المستوطنات.

٣. دور رجال الدين الصليبيين في تأسيس المستوطنات.

١.نقص العنصر البشري وتشجيع الهجرة

لقد كان نجاح الغزو الصليبي وتواصل الامداد من الغرب الأوربي للدفاع عن الكيانات الصليبية يعتمد بشكل مباشر على عنصر القوة البشرية وقد أظهرت تلك المشكلة اكثر من غيرها الفشل الأكبر للصليبيين، كما برهنت على كونها السبب الجوهري في الفشل المطلق للكيانات الصليبية في الشرق[١] فبعد أن حققت الحملة الصليبية الأولى هدفها المعلن وهو احتلال القدس غادر بعض كبار القادة الصليبيين إلى أوربا مثل روبرت دوق الفلاندر Robert Flandr و روبرت النورماندي Robert Normandy[٢] بينما ظلَّ العدد الأكبر من القادة الآخرين

(*) مدرس/كلية العلوم ا لإسلامية/جامعة الموصل.

[١] يوشع براور، عالم الصليبيين، ترجمة: قاسم عبدة قاسم،(عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، القاهرة: ١٩٩٩م)، ص ٩٤.

[٢] حدد وليم الصوري أسباب رحيل القائدين روبرت دوق فلاندر وروبرت النورماندي إلى بلادهما ذلك أن لان رحلةالحج التي كانا قد بدأها قد انتهت بنهاية احتلال مدينة القدس، وبعد انتهاء

أبـرزهم جودفـري البويـوني Godfrey Bouillon وبلـدوين الأول Baldwin I وبلدوين الثاني Baldwin II، وريموند الاول Raymond I كونت تولوز وتانكرد Tancard متواجـدين فـي بـلاد الشـام فقـد كـان علـيهم أن يقومـوا بمهمـة الإدارة الاستعمارية الاستيطانية، ولانهم كانوا اقل كثيراً في عددهم مقارنة بالعرب المسلمين أصـحاب البـلاد[١] فقـد حـاولوا قـدر المسـتطاع أن يشـجعوا الهجـرة مـن أوربـا إلـى فلسطين لدعم وجودهم فيها، ومن ناحية أخرى كانت أخبار النجاح الذي حققته الحملة الصليبية الأولى قد شجعت عناصر أوربية جديدة على القدوم إلى بلاد الشام رغبةً في الحصول على نصيب من المغانم والمكاسب التي شاعت أخبارها في الغرب الأوربي مع العائدين من فلسطين[٢].

فبعد احتلال القدس أصبحت المدينة المقدسة خالية من السكان بسبب سلوك الصليبيين الهمجي، وفي المقابل لم تكن أعداد الصليبيين تكفي لملء شارع واحد من شوارع مدينة القدس حسب قول الصوري[٣] وبقيت المشكلة الرئيسة التي واجهت الصليبيين هي نقص العنصر البشري وعدم تناسب ذلك النقص مع سعة المنطقة التـي أُسـتُحوذَ عليهـا[٤] وقـد انتبهـت السـلطات الصـليبية لتلـك الظـاهرة وحاولـت

المهمة أبحرا باحدى السفن إلى القسطنطينية، ثم توجها منها إلى أوربا. ينظر: تأريخ الحروب الصليبية الاعمال المنجزة فيما وراء البحار، ترجمة: سهيل زكار،(دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت:١٩٩٠م)،ج١، ص ٤٦١.

[١] فوشـــيه الشـــارتري، تـــأريخ الحمـــلة الـــى القدس،ترجمـــة:زياد العســـلي،(دار الشروق،عمان:١٩٩٠م)،ص٧٩.

[٢] قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية،(مطابع السياسه، الكويت: ١٩٩٠م)، ص ١٣١ ؛ البيشاوي، " دراسة مقارنة بين الاستيطان الصليبي والصهيوني "(المجلة الفلسطينية للدراسات التاريخية، رام الله: ١٩٩٨)، م١، ع١، ص ٩٥.

[٣] تأريخ الحروب، ج١، ص ٥٦٠.

[٤] محسن يوسف، " سكان القدس في نهاية القرن الحادي عشر الميلادي"(مجلة المؤرخ العربي، بغداد: ١٩٩٩م)،ع٥٧، ص ٩٤ ؛ Rene, Grousset,Histoire des Croisades du Royaume de Jersalem ,(Libairie Plon , Paris: 1934) Vol. I , pp. 218-219

معالجتها منذ بداية وجودهم في بلاد الشام فالامير جودفري البويوني الذي يعدُّ واضع قواعد التنظيم الإداري الاستيطاني على أسس مشابه للتنظيم الإقطاعي الأوربي اتخذ بعض الإجراءات بهذا الصدد، فقام بتوزيع الأرضي التي أُفرِغَت من أهل مدينة القدس من المسلمين والنصارى واليهود، كما اقر مبدأ الاستملاك الذي كان الصليبيون قد اتفقوا عليه قبل احتلالهم المدينة والذي أعطى بموجبه كل صليبي يضع يده على منزل أو ارض الحق في ملكيتها مطلقاً[١] كما عمد إلى طرد من ظلوا على قيد الحياة من السكان الاصليين، وذلك بهدف مزدوج: تأمين حماية المواقع بإزالة العناصر القابلة للتحالف مع مهاجم محتمل، وتخليص المدينة المقدسة وانتزاعها من حكم المسلمين[٢].

ولم يكتف الأمير جودفري بذلك بل طلب أثناء توديعه لبعض من قادة الصليبيين العائدين إلى أوربا أن يبذلوا قصارى جهدهم لتشجيع الأوربيين للقدوم إلى الشرق بهدف(القتال من أجل الصليب) مذكراً إياهم بالوضع الحرج الذي اصبح عليه باقي الصليبيين، ولاسيما ان الأخطار بدأت تهددهم وتحيط بهم، وعندما توجه كل من بوهيمند الاول Bohemond I وبلدوين الاول ومعهم أعداد كبيرة من الصليبيين قادمين من انطاكية للحج إلى القدس حاول الأمير جودفري أن يقنع قسماً منهم على البقاء في فلسطين مقابل منحهم الضياع واستطاع أن يحقق بعض النجاح بهذا الخصوص[٣].

---

[١] الشارتري، تأريخ الحملة، ص ٧٦.

[٢] جان ريشار، " تكوين مملكة القدس اللاتينية وبنيتها "، ضمن كتاب الصراع الاسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، تحرير: هادية شكيل دجاني،(مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت: ١٩٩٤م)، ص ٤٨ ،

[٣] ستيفن رنسيمان، تأريخ الحروب الصليبية، ترجمة:الباز العريني،(دار الثقافة، بيروت:١٩٦٧م)، ج١، ص ٤٢٠، ٤٢٦ – ٤٢٨ ؛ ر. سي سميل، الحروب الصليبية، ترجمة:سامي هاشم،(المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت: ١٩٨٢م)، ص ٣٠.

وعندما توج بلدوين الأول ملكاً على مملكة بيت المقدس الصليبية(٤٩٤ـ ٥١٢هـ/١١٠١ـ ١١١٨م) لم يكن هناك من القوة البشرية ما يكفي لتثبيت أركان المملكة الناشئة، إذ كانت معظم المواني البحرية الهامة لا تزال خاضعة لسيطرة المسلمين، كما أن الأراضي التي استولى عليها الصليبيون كانت لا تزال بحاجة إلى دعم[١].

ففي القدس واجه توطين المدينة بالسكان إشكاليات على الرغم من أن كل جهود الحملة الصليبية الأولى وجهت إلى تلك المدينة التي قتل معظم سكانها في سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م ولم يغير الصليبيون تلك السياسة تجاه سكان المدن الشامية إلا بعد احتلالهم مدينة صيدا في سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م، ومن دون شك أن القدس كانت عاصمة المملكة الصليبية ونظمت فيها الإدارة السياسية والكنسية إلا أنها كانت تفتقر إلى جميع الركائز الاقتصادية باستثناء ركيزة الحج فلم يوجد فيها إنتاج أو تجارة خارجية[٢] ونظراً لظروف الحياة الصعبة في المدينة وانعدام الأمن فيها لم يتجاوز سكان القدس في بداية عهد الملك بلدوين الأول بضع مئات من المستوطنين الصليبيين[٣] وهذا يعني أن الصليبيين لم يشكلوا سوى أقلية لأجل الاستيطان في المدينة وأريافها التي هجرها أهلها المسلمون بأعداد كبيرة[٤].

وقد أدرك المؤرخ الصليبي الشارتري أهمية العنصر البشري في عملية الاستيطان وعدَّهُ عنصراً رئيساً لعمليات التوطين الصليبي في الأراضي المقدسة منذ الفترة المبكرة لوجودهم فيها إذ قال((بقي بعضهم بعد ذلك في الأراضي المقدسة وعاد الاخرون إلى مواطنهم، وقد بقيت أراضي القدس خالية من السكان لهذا السبب،لم

---

[١] قاسم، ماهية الحروب، ص ١٣١.

[٢] هانز ابرهارد ماير، تأريخ الحروب الصليبية، ترجمة وتعليق: عماد الدين غانم(منشورات مجمع الفاتح للجامعات، ليبيا:١٩٩٠م)، ص ٢٢٧.

[٣] نفسه، ص ٢٢٥.

[٤] رنيه كروسيه،الحروب الصليبية صراع الشرق والغرب، ترجمة:احمد ايبش،(دار قتيبة للطباعة والنشر، دمشق:٢٠٠٣م)، ص ٥٨.

يتوفر فيها من الناس من يدافع عنها، لو أن الشرقيين(المسلمين) جرؤوا على مهاجمتنا))[١] ومن أجل معالجة الأزمة وتعويض النقص الحاد في عدد السكان الذي تعانيه المدينة المقدسة لجأ الملك بلدوين الأول إلى سياسة تشجيع الهجرة والاستقرار في القدس[٢] على أن تكون تلك الهجرة الاستيطانية ذات كثافة كافية بما يكفل المستقبل الزراعي والاقتصادي لمملكة بيت المقدس الصليبية[٣].

ففي السنوات الأخيرة من حكمه أمر الملك بلدوين الأول بنقل النصارى الشرقيين(الأرثوذكس) من القرى الواقعة فيما وراء نهر الأردن إلى مدينة القدس، وعندما قدموا إليها استقبلهم الملك بلدوين وزوجاتهم وأطفالهم ومنحهم أجزاءاً من المدينة المقدسة ووفر لهم المساكن للإقامة فيها، كما جرى تخصيص أماكن لقطعانهم ومواشيهم[٤] هذا فضلا عن توفيره فرصة العمل لهم في الأراضي الزراعية التي تركها المسلمون اثر استيلاء الصليبيين عليها[٥] وجاءت تلك الهجرة بناءً على عاملين، الأول: أن المدينة المقدسة كانت بأمس الحاجة إلى سكان يملأون فراغها الموحش، ولعل ذلك الأمر ينطبق على معظم المدن الشامية التي أحتلها الصليبيون[٦]، أما العامل الثاني الذي ساعد على جذب المستوطنين للاستقرار فيها فهو روعة المدينة ومكانتها الدينية لدى عموم النصارى الشرقيين

---

[١] تأريخ الحملة،ص١١٢؛ وقارن مع ما ذكره الصوري بهذا الصدد((لاحظ الملك(بلدوين الاول) بقلق كبير أن المدينة المقدسة كانت خالية من السكان تقريباً، حيث لم يكن هنالك عدد كاف من الناس لمواصلة المشاريع اللازمة للمملكة، وبالفعل لم يكن هنالك عدد كاف لحماية المداخل إلى المدينة وللدفاع عن الاسوار والابراج من خطر هجمات معادية مفاجئة)). ينظر: تأريخ الحروب، ج١، ص ٥٦٠.

[٢] الصوري، نفسه، ج١، ص ٥٦٠ – ٥٦١.

[٣] كروسيه، الحروب الصليبية، ص ٥٨.

[٤] رنسيمان، تأريخ الحروب، ج٢، ص ١٦٣ – ١٦٤.

[٥] الصوري، تأريخ الحروب، ج١، ص ٥٦٠– ٥٦١.

[6] J , Prawer ," The S ettlement of the Latins in Jerusalem " , in Speculum: 1981 , PP . 490 - 491.

والغربيين[١] وقد أدت تلك الهجرة تدريجياً إلى حدوث زيادة ملحوظة في عدد سكانها حتى وصل العدد إلى حوالي عشرة آلاف شخص استقروا فيها بشكل دائم، وبدورها أدت تلك الزيادة المضطردة في عدد السكان إلى خلق مشكلة أخرى تتعلق بتزويدهم بالطعام[٢]؛ لذا قام خليفته الملك بلدوين الثاني(٥١٢ . ٥٢٦هـ/١١١٨-١١٣١م) بإصدار مرسوم في سنة ٥١٢هـ/١١١٨م تضمن إعفاء التجار الصليبيين من الضرائب والرسوم التي كانت تفرض على السلع والبضائع سواءً المستوردة الداخلة إلى المدينة المقدسة أو المصدرة الخارجة منها مهما كان نوعها كما منح النصارى من الطوائف جميعها كالسريان والاغريق والأرمن امتيازاً يحق لهم من خلاله استيراد الحبوب من القمح والشعير وغيرها وجلبها إلى مدينة القدس من دون ضريبة هذا فضلاً عن إلغاء الضريبة التي كانت تفرض على الأوزان والمكاييل، وقد جاءت محاولة الملك بلدوين الثاني لكسب ود السكان ومن أجل تحقيق غرضين، الأول: اقتصادي لتنشيط الفعاليات الاقتصادية عن طريق توفير المواد الغذائية في المدينة بشكل افضل إذ أصبحت إمكانية جلب السلع والبضائع من الخارج أمرا سهلاً ما دامت معفوة من الضرائب، أما الغرض الثاني: فهو إداري استيطاني، فقد سار الملك بلدوين الثاني على نهج أسلافه الملوك الصليبيين في زيادة عدد سكان مدينة القدس التي كانت بحاجة للعنصر البشري في خدمة مشروع الاستيطان الصليبي آنذاك[٣].

أما الملك املريك الأول Amalyric I(٥٥٩ . ٥٦٩هـ/١١٦٣ . ١١٧٤م) فقد حاول أن يستقدم إلى مملكة بيت المقدس حوالي ثلاثين ألف شخص من الأرمن، وكانوا سيجلبون إليها مقابل أن يؤدوا الخدمة العسكرية في جيش المملكة الصليبية ولكن

---

[١] الصوري، تأريخ الحروب، ج١، ص ٥٦١.

[٢] محمد الحافظ النقر، " التغيرات الإدارية والعمرانية والسكانية في مدينة القدس "، ضمن اعمال مؤتمر بلاد الشام في فترة الصراع الاسلامي الفرنجي(جامعة اليرموك، الاردن: ٢٠٠٠م) ج٢، ص٦٥٧.

[٣] الصوري، تأريخ الحروب، ج١، ص ٥٨٨.

محاولته باءت بالفشل الذريع لأن الكنيسة طالبت بعشر خاص بها كانت تفرضه على كل مورد من الموارد في حين اعفي المسلمون من ذلك العشر[١].

أما البابوية فقد كان لها دور بارز أيضا قي تشجيع الاستيطان في الشرق وذلك من خلال ما أصدرته من تعليمات تعدّ فيها مسألة السفر والإقامة في الأراضي المقدسة من باب التكفير عن الذنوب[٢] وبناءً على ذلك فقد كان الآلاف من الحجاج النصارى يأتون كل عام لزيارة الأماكن المقدسة في فلسطين وبمجرد وصولهم إليها كان بعضهم يستقر فيها[٣] كما توافدت أعداد من الفرسان من أوربا لتأدية نذورهم للخدمة في فلسطين سنة أو سنتين[٤] وجاء ذلك التشجيع نتيجة لأنباء الانتصارات وطلبات التعزيز التي كانت تصدر عن الشرق فعقد العديد منهم العزم على المشاركة في العمليات العسكرية وكان من بينهم أيضا من يشارك لاول مرة[٥]، ولم يقتصر دور البابوية عند ذلك الحد بل استمر دعمها في توجيه الحملات الصليبية، وعلى الرغم من ان بعضاً من تلك الحملات لم تحقق نجاحاً ملموساً مثلما حققته الحملة الصليبية الأولى بدليل انه لم نظم إلى المستوطنين الأوئل سوى أعداد قليلة[٦] ويعود سبب ذلك إلى الخسائر الفادحة التي تعرضت لها الجيوش الصليبية على يد الدانشمنديين[٧] في سنة ٤٩٢هـ/١٠٩٩م[١] وكذلك

---

[١] ماير، تأريخ الحروب، ص ٢٣٢.

[٢] نفسه، ص ٣١، ٤٦ – ٤٧.

[٣] ريشار، تكوين مملكة، ص ١٥٧.

[٤] بنيامين بن يونا التطيلي،رحلة بنيامين، ترجمة:عزرا حداد(المطبعة الشرقية، بغداد:١٩٤٥م) ص١٠٠.

[٥] ماير، تأريخ الحروب، ص ١٠٦.

[٦] ارنست باركر،الحروب الصليبية، ترجمة: الباز العريني،(دار النهضة العربية، بيروت:١٩٦٧م)، ص ٨.

[٧]الدانشمنديون: هم إحدى الاسر التركمانية التي نشأت في الركن الشمالي الشرقي من آسيا الصغرى، ويعد الأمير التركماني احمد بن الدانشمند المؤسس الحقيقي لتلك الإسرة التي توسعت على حساب الممتلكات البيزنطية في كبد وكيا واماسية وسيواس وقيصرية. وللمزيد

خسائرهم على يد المسلمين في الحملة الصليبية الثانية[٢] سنة ٥٤٣هـ/١١٤٨م فكان لتلك الأمور دور في تقليص الاستيطان الصليبي في مملكة بيت المقدس وفوق ذلك كله نظرة الشك والريبة للمستوطنين الأوائل تجاه القادمين الجدد بوصفهم منافسين لهم ولذلك لم يرحبوا بالإمدادات التي جاءت لمساعدتهم وعدوا مجيئهم لتحقيق أطماع ومكاسب تتمثل بإقامة إمارات جديدة خاصة بهم في بلاد الشام[٣].

أما بالنسبة للمدن الإيطالية الثلاث البندقية وجنوه وبيزا فقد أسهمت في تنفيذ فكرة الاستيطان الصليبي، إذ قامت بدور فاعل في ربط إمارات الشام الصليبية بالغرب الأوربي كما بذلت المساعدة للصليبيين ولم تفعل ذلك بسبب وازع ديني وانما طلبت

من التفاصيل. ينظر: فتحي سالم اللهيبي، مملكة أرمينية الصغرى(رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى كلية الآداب، جامعة الموصل: ٢٠٠٠م)، ص ٦٥ . ٦٨.

[١] وهي الحملة التي منيت بهزيمة ساحقة على يد الدانشمنديين بالقرب من مدينة سيواس، ويقدر ابن الأثير حجم الخسائر البشرية للصليبيين في تلك الحملة قائلاً((فلم يفلت أحد من الفرنج، وكانوا ثلاثمائة ألف، غير ثلاثة الآلاف هربوا ليلاً))ينظر:عز الدين محمد بن محمد،الكامل في التاريخ،(دار صادر، بيروت: ١٩٦٦م)،ج١٠، ص٣٠٠.

[٢] كانت الحملة الصليبية الثانية قد اتجهت من أوربا إلى بلاد الشام عقب تحرير الرها من قبل الأمير عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩هـ/١١٤٤م، وتألفت من الجيش الالماني الذي قاده الإمبراطور الألماني كونراد الثالث(٥٣٣-٥٤٧هـ/١١٣٨-١١٥٢م) بالاشتراك مع الجيش الفرنسي بقيادة الملك لويس السابع(٥٣٢-٥٧٦هـ/١١٣٧-١١٨٠م). ينظر: ابن الأثير،التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، تحقيق: عبد القادر احمد طليمات،(دار الكتب الحديثة،القاهرة:١٩٦٣م)، ص ٨٨؛جمال الدين محمد بن سالم بن واصل،مفرج الكروب في اخبار بني ايوب،تحقيق:جمال الدين الشيال(مطبعة جامعة فؤاد الاول،القاهرة:١٩٥٣م)،ج١،ص١١٢. وقد تعرضت تلك الحملة إلى خسائر فادحة في أعالي الشام بسبب الظروف الطبيعية القاسية التي واجهت الصليبيين من حيث تضاريس المنطقة وصعوبة مسالكها وسوء الاحوال الجوية هذا فضلاً عن الهجمات الإسلامية التي اربكت تقدمهم نحو العمق الإسلامي. ينظر:رنسيمان، تأريخ الحروب،ج٢، ص٤٣٢-٤٣٨.

[٣] باركر، الحروب الصليبية، ص ٦٨.

نظير ذلك امتيازات تجارية هامة وحصلت عليها[١] فعلى سبيل المثال أدركت البندقية أن استيلاء الصليبيين على مدن بلاد الشام في الحملة الصليبية الأولى سيفتح لها منفذاً إلى تجارة الشرق لذا سارعت البندقية إلى مباركة الحركة الصليبية، وتقديم كل مساعدة ممكنة للصليبيين مقابل الحصول على امتيازات تجارية في المدن التي استولى عليها الصليبيون في الشرق كما سنرى فدخول البندقية دائرة الحروب الصليبية تحكمت فيه مطامعها الدنيوية ورغبة في إقامة مستعمرات في بلاد الشام[٢].

كما ساهم الجنويون في الحملة الصليبية الاولى منذ بدايتها لخوفهم على مكاسبهم التجارية في مصر التي هددها الخطر السلوقي الذي اوصد اسواق الشرق امامهم وحرمهم من الثروة الطائلة التي كانت تنصب في ايدي جالياتهم من جراء تعاملهم التجاري الناجح من سلع الشرق في كل من مصر وحلب وبغداد وغيرها من المدن والموانيء الشرقية، وهذا يعني انهم اشتركوا في الغزو للحصول على امتيازات نظير مساعدتهم لابناء جلدتهم من الصليبيين وهذا ما تم تحقيقه بالفعل[٣].

ففي الوقت الذي استطاع فيه الصليبيون السيطرة على الجزء الشرقي من البحر المتوسط كان التجار الايطاليون هم اصحاب القيادة في نقل السلع والبضائع الشرقية بين موانيء الشرق وموانيء الغرب وكان من البديهي امتلاك المدن على الساحل الشامي الامر الذي يعد مسألة حياة او موت بالنسبة للوجود الصليبي،

---

[١] سهير نعينع، " الاهمية التجارية لمدينة صور زمن الحروب الصليبية والنشاط التجاري فيها "، ضمن اعمال المؤتمر الثاني لتاريخ مدينة صور،(منتدى صور الثقافي، صور: ١٩٩٧م) م١، ص٨٩-٩٠.

[٢] عفاف سيد صبرة،العلاقات بين الشرق والغرب، علاقة البندقية بمصر والشام في الفترة من١١٠٠-١٤٠٠م،(دار النهضة العربية،القاهرة:١٩٨٣م)، ص١٩.

[٣] مصطفى حسن محمد الكناني، العلاقات بين جنوة والفاطيين في الشرق الادنى ١٠٩٥-١١٧١م/٤٤٨-٥٦٧هـ(الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة:١٩٨١م)،ص١١٠، ١١٧ . ١١٨.

فكان امتلاكها وحده يضمن لتلك الدول اتصالها بالغرب الاوربي حتى تصل الامدادات البشرية والمعونات المادية الضرورية في ديمومة الاستيطان وبقائها في بلاد الشام[١].

وبناءً على ما تقدم فقد ازدهرت حركة الاستيطان الصليبي في مملكة بيت المقدس في المرحلة اللاحقة وذلك عندما تمكن الصليبيون من السيطرة على المدن الساحلية امثال ارسوف وقيسارية وعكا التي اصبحت فيما بعد عاصمة لمملكة بيت المقدس الصليبية، ويرجع ذلك الى ازدهار نشاطها الاقتصادي ذي الطابع التجاري[٢](ولاسيما وانها امتلكت ميناءً كبيراً صالحاً لرسو السفن في كل فصول السنة وتلك الميزة جعلت ميناءها يعد الميناء الرئيس للمملكة الصليبية لشحن السلع والبضائع الى الغرب الاوربي[٣].

استوطنت عكا الطبقة الارستقراطية الحاكمة من النبلاء والفرسان، وعلى الرغم من قلة عددهم الا انهم شكلوا العمود الفقري للمجتمع الصليبي في بلاد الشام، ويرجع سبب هذا التناقص المستمر في اعدادهم الى الحرب ووقوعهم ضحايا المعارك والاسر وكذلك قلة القادمين من الغرب الأوربي، كما استقر في عكا قسم من الحجاج الصليبيين إلا أن أعدادهم كانت قليلة جداً لان الغالبية العظمى منهم كانت تفضل العودة إلى أوربا بعد انتهاء موسم الحج[٤].

وكانت عكا مركزاً تجارياً مهماً جذب الإيطاليين للاستيطان فيها، فقد حصل الجنويون بموجب الاتفاق مع الصليبيين بعد استيلائهم على المدينة على ثلث العائدات المجموعة في ميناء عكا ومن الواردات المنقولة بحراً، كما تم منحهم

---

[١] سميل، الحروب الصليبية، ص ٢٦ ؛ نعينع، " الاهمية التجارية " ص ٩٠.

[٢] رنسيمان، تاريخ الحروب، ج٢، ص ٢٠، ٢٦، ١٤٤.

[٣] الشارتري، تاريخ الحملة، ص ١٣١.

[٤] سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية،(مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر،القاهرة:١٩٦٣م)،ج١،ص٤٩٢

كنيسة وحي خاص بهم يشتمل على شارع وفُرن وطواحين وحمام وغير ذلك من ممتلكات وفقاً للخدمات التي قدموها للصليبيين[١].

والواقع أن الحرفة الرئيسة لتلك الفئة الإيطالية هي التجارة لذلك شكلوا طبقة مستقلة قائمة بذاتها، فكانوا يتكلمون بلغتهم ولا يخالطون غيرهم إلا في المعاملات التجارية، وقد تمتع اولئك التجار بامتيازات عديدة أهمها: الإعفاء من الضرائب، وهذا ما أدى بطبيعة الحال إلى زيادة أعداد القادمين من أوربا للاستيطان في عكا[٢] هكذا شكلت الجالية التجارية للمدن الإيطالية غالبية سكان المدن الساحلية في بلاد الشام وكانت عكا أنموذجا لذلك هيمن الطابع التجاري على نظمها الاقتصادية والقضائية[٣].

ولم يقتصر ذلك الاستيطان على الجاليات التجارية فحسب بل أصبحت مدينة عكا على حد قول المؤرخ الفرنسي كروسيه ملجأ لقطاع الطرق والمجرمين والمبعدين من أوربا[٤] ومما يؤكد ذلك ما ذكره الاصفهاني ومن نقل عنه بان مدينة عكا أصبحت ملجأ للنساء الساقطات اللاتي قدمن من مختلف أنحاء أوربا مع الحملة الصليبية الثالثة[٥] إلى بلاد الشام في سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م[١].

---

[١] الصوري، تأريخ الحروب، ج١، ص ٥١٢-٥١٣.

[٢] ريشار، " تكوين مملكة "، ص ١٥٨.

[٣] راغب حامد البكر، الحروب الصليبية بدايات الاستعمار الاوربي،(رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة الى كلية الاداب، جامعة الموصل:١٩٨٣م)،ص١٠٩.

[4] Histoire Croisades , Vol. III , p. 980.

[٥] أثارت الانتصارات التي حققها الناصر صلاح الدين الأيوبي في شمال الشام وجنوبه وعودة بيت المقدس إلى الحكم العربي الإسلامي موجة غضب شاملة عمت أوربا آنذاك بملوكها وإمرائها ورجال دينها مما دعا الغرب الأوربي إلى إعداد حملة جديدة ضد المسلمين عرفت بالحملة الصليبية الثالثة تزعمها ريتشارد(قلب الأسد) ملك انلكترا وفيليب اغسطس ملك فرنسا وفردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا الذي كان يتطلع إلى قتال المسلمين وفي أثناء سيره بجيشه الألماني الضخم بسهل سلوقيا وفي محاولته اجتياز نهر هنالك لقي حتفه في حزيران سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م،أما الملك ريتشارد وفيليب فقد سارا بقواتهما حتى وصلا بلاد الشام، فحققا

وقد توسعت رقعة الاستيطان بعد أن سيطر الصليبيون على معظم مدن الساحل الشامي ولم يبق من تلك المدن الساحلية سوى مدينتي صور وعسقلان وكان الملك بلدوين الثاني قد طلب المساعدة من البنادقة للتعاون المشترك للاستيلاء على هاتين المدينتين[٢].

وفي بداية سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م تم عقد معاهدة في مدينة عكا حضرها عن الجانب الصليبي وليم بور الوصي William Bures على مملكة بيت المقدس والبطريرك جرموند Germond(٥١٢ . ٥٢٢هـ/١١١٨ . ١١٢٨م)، فضلاً عن مستشار المملكة باجان Pagan بينما حضر دوق البندقية دومينيكو ميشيل Doge Domenico Michiel لتوقيع المعاهدة من جهة أخرى[٣].

وتتجلى بوضوح صورة الاستيطان في نص المعاهدة التي تضمنت في حالة إسهام البنادقة إسهاماً رئيساً في الاستيلاء على المدينتين يصبح ثلث كل منهما ملكاً خاصاً لهم بينما يبقى الثلثان الآخران للملك[٤] كما جاء ضمن بنود المعاهدة طلب البنادقة منحهم شارعاً وميدانَ كنيسة وفرناً وطاحونة وحماماً في كل مدينة تابعة إلى الملك أو لأحد بارونات وذلك من دون إعطاء أي تعويض يذكر للجانب

بعض النجاح باستيلائهم على مدن عكا ويافا وارسوف،غير أن الحملة فشلت في استعادة مدينة القدس التي كانت الهدف الأساس الذي خرجت من أجله. ينظر: ستانلي لين بوول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس، ترجمة: فاروق سعد أبو جابر(مطابع الأهرام التجارية،القاهرة: ١٩٩٥م)، ص ٢٠٩ – ٢١٠ ؛ ميخائيل زابوروف، الصليبيون في الشرق، ترجمة: الياس شاهين،(دار التقدم،موسكو: ١٩٨٦م)،ص ١٩٣ – ١٩٥.

[١] محمد بن محمد بن العماد الكاتب، الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق:مصطفى فهمي الكتبي،(مطبعةالموسوعات،مصر:د.ت)،ص١٦٩–١٧٠؛ شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل أبو شامة، الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية،(دار الجيل،بيروت:د.ت)، ج٢، ص١٤٩.

[٢] رنسيمان،تأريخ الحروب، ج٢، ص ١٥٢، ٢٦٥.

[٣] الشارتري،تأريخ الحملة،ص٢٠٦؛الصوري،تأريخ الحروب،ج١،ص٦٠١–٦٠٢.

[٤] الشارتري،نفسه، ص ٢١٧ – ٢١٨.

الصليبي، فضلاً عن طلبهم بان يخصص لهم في مدينة القدس حيّاً يماثل حيَّ الملك، وحرص البنادقة على عدم تعرضهم للمنافسة من جانب المدن التجارية الأخرى فاشترطوا إلا تقوم مملكة بيت المقدس بتخفيض الضرائب المفروضة على سائر الجاليات والهيئات من دون الرجوع إليهم، وقد وعدهم بطريرك القدس جرموند واقسم على ذلك غير أن الملك بلدوين الثاني بعد رجوعه من الأسر لم يوافق على ذلك الشرط الأخير الذي يجعل المملكة وتجارتها حِكراً للبنادقة[١].

وأخيرا فقد قدر عدد المستوطنين الصليبيين في مملكة بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م من نبلاء ورجال دين وبرجوازيين بحوالي مائة وعشرين ألفا، كان ثلاثون ألفا منهم قد استوطنوا في مدينة القدس بينما استقر اربعون الفاً في مدينة عكا في حين استوطن ما بين خمس وعشرين إلى ثلاثين ألفا في مدينة صور. أما باقي العدد الآخر من الصليبيين فقد توزعوا للاستيطان في مدن أخرى للمملكة الصليبية[٢].

وهذا يعني أن مركز الثقل الصليبي لمملكة بيت المقدس الصليبية كان موزعاً بين القدس بصفتها العاصمة الإدارية والدينية والعسكرية وبين مدن الساحل بصفتها الاقتصادية ولكن بعد التحرير الإسلامي للقدس انتقل الزخم البشري والإداري والاقتصادي والعسكري والسياسي أولاً إلى صور ثم توزع بينها وبين عكا التي أصبحت العاصمة الجديدة للمملكة الصليبية بعد استعادتها من الأيوبيين[٣].

ومن جانب آخر كان لعامل المناخ وعدم تكيف الصليبيين له وقلة الطعام واستمرار حالة الحرب والحصار بشكل دائم اثرها في تقليص موجات الهجرة التي لم تكن كافية لان تجعل من المستوطنات كيانات سياسية حية ولا سيما ان نسبة الصليبيين

---

[١] الصوري،تأريخ الحروب،ج١، ص٦٠٢ – ٦٠٥.

[٢] ماير، تأريخ الحروب، ص ٢٣٠.

[٣] الياس القطار، " المجتمع في صور في العهد الفرنجي "، ضمن اعمال المؤتمر الثاني لتاريخ مدينة صور ٢٤. ٢٥ ايار،(منتدى صور الثقافي، صور: ١٩٩٧م)، ص ١١٢.

داخل حدودهم بالقياس إلى إعدادهم كانت واحدا إلى خمسة تقريباً، وقد برهن ذلك التقييم الإحصائي على أن الصليبيين فشلوا في الاستعمار الاستيطاني كما أن ذلك التقييم كان اكثر أهمية عند النظر إليه من خلال الإطار الجغرافي السياسي للشرق الإسلامي إذ لم يكن ربع مليون أوربي يواجهون السكان المسلمين داخل مناطق سيادتهم فحسب وانما كانوا يواجهون ملايين المسلمين في الشام والعراق ومصر[١].

٢. دور الملوك الصليبيين في تأسيس المستوطنات

أسهم الملوك في مملكة بيت المقدس الصليبية في إقامة العديد من المستوطنات في الأراضي التي خضعت لسيطرتهم، وجاء تشييدها لاعتبارات عسكرية وإدارية واقتصادية ودينية أحاطت بالمملكة الصليبية آنذاك.

فقد قام الملك فولك الانجوي Fullk Anjou ببناء مستوطنة في بيت جبرين سنة ٥٣١هـ/١١٣٦م[٢] بالقرب من مدينة عسقلان[٣] وتظهر صورة الاستيطان بوضوح في تلك المستوطنة سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م فقد بلغ عدد الأسر الصليبية التي استوطنت فيها اثنتي وثلاثين أسرة، كانت ست أُسر منها في الأصل من المستوطنين القدامى في أراضي فلسطين قبل انتقالها إلى المستوطنة، أما سائر الأسر فكانت من القادمين الجدد من الغرب الأوربي ومن مناطق مختلفة أمثال اوفرني وكسكوني ولومبارديا وبواتو وقطالونية وبورغند وفلاندر، وقد منحت كل أسرة من تلك الأسر مساحة قدرت بحدود ٤٢هكتاراً(أي ما يعادل ١٠،٠٠٠م٢) من أراضي المستوطنة لأجل زراعتها، ومقابل زراعة تلك الأراضي توجب عليهم أن يدخلوا الحرب وان يشاركوا في القتال مع الصليبيين ضد المسلمين، كما كان

---

[١] براور، عالم الصليبيين، ص ٩٥ – ٩٦.

[٢] لم تشر المصادر العربية واللاتينية المعاصرة إلى قيام مستوطنات صليبية قبل ذلك التأريخ، أي في عهد الملوك الذين سبقوا الملك فولك الانجوي، ولعل ذلك يعود إلى عناية حكامهم الأولين بتوسيع النفوذ الصليبي في البلاد العربية اكثر من عنايتهم بالاستقرار.

[٣] الصوري، تأريخ الحروب، ج٢، ص ٦٨٣ ؛

W.B.Stevenson ,The Crusaders in the East second edition ,(Slim Press,Beirut:1968),P.136.

عليهم أن يدفعوا ضريبة العشر على المحاصيل الزراعية طبقاً للعرف المتبع في الأراضي الزراعية جميعها التابعة للمملكة الصليبية[١].

أما العامل الثاني الذي دعم عملية الاستيطان في بيت جبرين وساعد على جذب السكان فتمثل في إلغاء ملكية الأراضي التي اشترتها هيئة فرسان الاسبتارية، فأصبحت الأرض تنتقل إلى إقطاعي مقابل ضريبة معتدلة، وفوق ذلك كله كان لدى المستوطنة محكمة خاصة بها[٢]. وقد كان بعض المتعهدين يفاوض السادة الإقطاعيين لاجتذاب مستوطنين وتوطينهم في بيت جبرين للعمل في الأراضي الزراعية مقابل الإعفاء من الضرائب مّما أسهم ذلك في رفع قيمة الأراضي الزراعية[٣].

أما مشروع الاستيطان الثاني في عهد الملك فولك الانجوي فكان تأسيس مستوطنة صفد[٤] في سنة ٥٣٥هـ/١١٤٠م[٥]، وقد بلغ عدد المستوطنين الصليبيين في تلك المستوطنة حوالي عشرة آلاف نسمة يتوزعون على مئتين وستين قرية، وعلى سفح المستوطنة كان يوجد اكبر قرية من تلك القرى وفيها سوق يمارس فيه السكان مختلف الأنشطة والفعاليات الاقتصادية[٦].

وتقدم المستوطنة صورة عن الزراعة وتربية الحيوان وصيد الأسماك مما شجع ذلك على إنجاح عملية الاستيطان في المنطقة، و في هذا الصدد اشتهرت المستوطنة

---

(١) ماير،تأريخ الحروب،ص ٢٢٩؛نبيلة ابراهيم مقامي،فرق الرهبان الفرسان في بلاد الشام في القرنين الثاني عشر والثالث عشر،(مطبعة جامعة القاهرة،القاهرة:١٩٩٤م)،ص٧٨.

(٢) ماير، نفسه، ص ٢٢٩.

(٣) ريشار، " تكوين مملكة "، ص ١٥٨.

(٤) صفد:مدينة في جبل عامل مطلة على حمص بالشام،وهو من جبال لبنان. ينظر:شهاب الدين ابو عبدالله ياقوت الحموي، معجم البلدان،(دار صادر للطباعة والنشر، بيروت:١٩٥٧م)،ج٣،ص٤١٢.

(5) Stevenson , The Crusaders , P. 146 ; R.obin Fedden and John Thomson , Crusader Castles(No. p. , London , 1957) , p. 19.

(٦) ماير، تأريخ الحروب، ص ٢٢٨ ؛ مقامي، فرق الرهبان، ص ٧٠.

بإنتاج العديد من المحاصيل الزراعية مثل الحبوب(القمح والشعير) والرمان والزيتون[١]، هذا فضلاً عن اشتهارها بزراعة الكروم(العنب)[٢].

كما كانت المستوطنة تنتج العسل، وكان هنالك نظام لارواء الأراضي الزراعية عن طريق مياه الآبار وصهاريج المياة داخل قلعتها. ومن جانب اخر كان للمستوطنة نوعان من المطاحن لطحن الحبوب، الأول: مطاحن هوائية أو تلك التي تديرها الحيوانات داخل المستوطنة، أما النوع الثاني: فهي المطاحن المائية وموقعها خارج المستوطنة التي بلغ عددها اثنتي عشرة طاحونة مائية، هذا في المجال الزراعي. أما بالنسبة للنشاط الاقتصادي التجاري فقد وجد في المستوطنة أنواع من الأحجار الكريمة التي كان يستغلها المستوطنون لأغراض تجارية[٣].

ومن جانب آخر كان لأهمية ذلك الاستيطان احتواء تلك المستوطنة على جداول مياه الشرب للسكان ولارواء الأراضي الزراعية التي كانت منتشرة باتجاه مدينة طبرية لذا ظهرت أحياء سكنية عدة شغلت مساحة واسعة بلغت ثلث المساحة الكلية للمستوطنة، كما اتسع نطاق الاستيطان فيها بدليل ظهور نواحي انتشرت في المناطق المحيطة بالمستوطنة[٤].

كانت مستوطنة صفد مركزاً ومعقلاً لطائفة فرسان الداوية[٥]، ويبدو أن الهدف من بناء المستوطنة كان عسكرياً للحيلولة دون عبور المسلمين لنهر الأردن ومنعهم

---

[١] ماير، نفسه، ص ٢٢٨.

[٢] تقي الدين احمد بن علي المقريزي،السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق:محمد مصطفى زياد، ط٣(مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة:١٩٥٦م)،ج١، ق١،ص ٦٨.

[٣] ماير، تأريخ الحروب، ص ٢٢٨.

[٤] عماد الدين اسماعيل بن محمد ابو الفدا، تقوم البلدان،اعتنى بتصحيحه:رينود وماك كوكين ديسلان،(دار الطباعة السلطانية، باريس:١٨٤٠م)، ص ٢٤٣.

[٥] ابن الأثير،الكامل،ج١١،ص٥٥٨؛ابن واصل،مفرج الكروب،ج٢،ص٢٤٦.

من القيام بهجمات عسكرية تجاه الصليبيين في مدينة عكا، وبذلك كانت تقدم الحماية للزراعة والاستيطان[١].

ومن المستوطنات الصليبية الأخرى التي شيدها الصليبيون في عهد الملك فولك الانجوي في جنوبي غربي مدينة القدس المستوطنة التي أقيمت في تل الصافية[٢] سنة ٥٣٧هـ/١١٤٢م، وبعد اكتمال العمل وإنجاز بناء المستوطنة وضعها الملك فولك الانجوي تحت حمايته الخاصة، وزودها بما يكفي من الأطعمة والأسلحة وعهد بها إلى رجال كان لهم خبرة طويلة في شؤون الحرب، ومعروفين بإخلاصهم وولائهم للملك[٣].

وعلى الصعيد العمراني شهدت مستوطنة تل الصافية تطوراً استيطانياً ملحوظاً، إذ انتشرت حولها أرباض وضواحٍ كثيرة استوطن فيها أعداد كبيرة من الأسر الصليبية إلى جانب الفلاحين الذين يعملون في الأراضي الزراعية، وأصبحت المنطقة بأسرها اكثر أمنا لتوافر المؤن والإمدادات بتلك المستوطنة[٤].

وكان تشييد مستوطنة تل الصافية لتؤدي أغراضاً منها العسكرية والاقتصادية والدينية، فالغرض العسكري لأجل توفير الحماية لمدينة القدس من خلال التصدي لأي خطر خارجي تتعرض له من قبل المسلمين[٥]، كما كانت المستوطنة مركزاً لجميع السكان الذين يلجأون إليها عند الخطر[٦]، أما بالنسبة للغرض الاقتصادي فكانت أراضي المستوطنة تنتج بعض المحاصيل الزراعية، وأصبحت تلك

---

[١] ماير، تأريخ الحروب، ص ٢٢٩.

[٢] تل الصافية: كان ذلك الموقع يسمى باللغة العربية باسم تل الصافية بمعنى التل أو الجبل الواضح. ينظر: الصوري،تأريخ الحروب، ج٢، ص٧٢٩.وتل الصافية من أعمال فلسطين قرب بيت جبرين من نواحي الرملة. ينظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص ٤٢.

[٣] الصوري، نفسه، ج٢، ص ٧٢٩.

[٤] نفسه، ج٢، ص ٧٢٩.

[٥] البيشاوي، " دراسة مقارنة " ، ص ٩٨-٩٩.

[٦] عوض، الحروب الصليبية دراسات تاريخية ونقدية(دارالشروق،عمان:١٩٩٩م)،ص٨٩.

الأراضي اكثر إنتاجا للمنتجات الزراعية نظراً لدور المستوطنة في توفير الأمن للقرى والأرياف المحيطة بها[١] وفوق ذلك كله كانت المستوطنة مركزاً للإدارة المحلية تتولى مهمة جمع الضرائب والرسوم من الفلاحين والقوافل التجارية المارة عبر طريق المستوطنة[٢] أما فيما يتصل بالغرض الديني فكانت مقراً لفرسان الداوية[٣].

أما الملك بلدوين الثالث Baldwin III فقد قام في سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م ببناء مستوطنة امبرت[٤] الصليبية التي سميت بذلك الاسم نسبة لاحد النبلاء الصليبيين[٥] شمالي مدينة عكا بحوالي(٦كم) على الطريق المؤدي إلى مدينة صور[٦] بينما أشار أحد المؤرخين المحدثين إلى أن بناءَها كان في سنة ٥١٧هـ/١١٢٣م أي في عهد الملك بلدوين الثاني[٧] والراجح أنها شيدت في سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م ولاسيما انه لا توجد أي إشارة عن بناء أية مستوطنة خلال حكم الملك بلدوين الثاني.

---

[١] سميل، الحروب الصليبية، ص ٢١٦.

[٢] رنسيمان، تأريخ الحروب، ج٢، ص ٣٦٩ ؛ الباز العريني، الشرق الأوسط والحروب الصليبية،(مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر، القاهرة: ١٩٦٣م)، ج١، ص ٣٧٤.

[٣] مقامي، فرق الرهبان، ص ٩٠.

[٤] يقع موضعها في الوقت الحاضر عند بلدة الرشيدية التي قامت بمحيطها مستوطنة نهاريا الإسرائيلية. ينظر: كروسيه، الحروب الصليبية، ص ٨٥ هامش(٣).

[٥] البيشاوي " دراسة مقارنة " ص ٩٨.

[٦] ثيودريش، وصف الاماكن المقدسة في فلسطين، ترجمة وتحقيق ودراسة: سعيد عبدالله البيشاوي ورياض شاهين،(دار الشروق، عمان: ٢٠٠٣م) ، ص ١٤٧ – ١٤٨.

[٧] العريني، " نمو طبقة النبلاء الاقطاعيين بمملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر الميلادي "،(مجلة كلية الاداب، القاهرة: ١٩٥٨م)، م٢٠، ج٢، ص ٤٦.

أمّا الملك املريك الأول فقد اقام في سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م مستوطنة ذات طابع عسكري في منطقة الداروم[١] الواقعة في أقصى جنوب فلسطين[٢] وذكر الصوري أن الملك املريك أنشأها لكي تصبح مدينة كبرى تسهم في توسيع حدود المملكة الصليبية، وكان في ذهنه أن يكون لها وضع افضل، وتصبح مليئة بالسكان خلال السنوات اللاحقة، ففي بادئ الأمر استوطن فيها عدد غير قليل من الفلاحين للعمل في الأراضي الزراعية فضلاً عن بعض التجار وبذلك شكلوا مستعمرة صغيرة، وفيما بعد توسع الاستيطان في مستوطنة الداروم من خلال تشييد قرية وكنيسة لرجال الدين الصليبيين في موقع قريب من قلعة المستوطنة[٣] وقد جاء ذلك التوسع عقب استقرار طائفة الفرسان الداوية التي تولت مهمة الإشراف وادارة شؤون المستوطنة والدفاع عنها ضد خطر الهجمات الخارجية[٤].

وهكذا فقد أنشأ الغزاة الصليبيون مستوطنات عدة[٥] في مناطق مختلفة من بلاد الشام امتاز بعضها بالطابع العسكري من أجل توفير الحماية للتواجد الصليبي في الأراضي المقدسة بينما امتاز بعضها بالطابع الاقتصادي، وقد أسهمت تلك المستوطنات في زيادة الرقعة الزراعية في الأراضي المقدسة، فضلاً عن تنظيم

---

[١] داروم:اطلق عليها(دار الروم)،نسبة إلى دير كان قد بناه الروم في ذلك الموقع في فترة سابقة.ينظر :الصوري،تأريخ الحروب،ج٢،ص٩٤٩؛ويقال لها الدارون أيضا تقع بعد غزة تجاه مصر مطلة على البحر الأبيض المتوسط.ينظر :ياقوت الحموي، معجم البلدان،ج٢،ص٤٢٤؛ عز الدين بن محمد بن علي بن شداد، الاعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة،تحقيق:سامي الدهان(المطبعة الكاثوليكية، بيروت:١٩٦٣م)،ج٢،ص٢٦٤،هامش رقم(٤).

[٢] أبو شامة الروضتين، ج١، ص ١٦٩ ؛ M. C. Lyons and D.E.P. Jackson , Saladin: The Politics of the Holy War ,(No.P , Cambridge: 1986-1988) , P. 42.

(٣) تأريخ الحروب، ج٢، ص٩٤٩.

[٤] سميل، الحروب الصليبية، ص ٥٩.

[٥] لم تذكر المصادر العربية أو اللاتينية المعاصرة شيئاً عن تلك المستوطنات وتاريخ قيامها.

الأراضي الزراعية تنظيماً يتفق مع حاجة الغزاة من المحاصيل الزراعية، ومن أمثلة تلك المستوطنات الرام Aram[١].

وقلندية[٢] وعطارة[٣] وغيرها كما أن بعض المناطق كانت تزخر بالمستوطنات الصليبية وكانت تشكل كثافة سكانية عالية مثل منطقة قيسارية التي كانت تضم حوالي سبع وسبعين مستوطنة حسب تقديرات أحد المؤرخين المحدثين[٤].

وهكذا كانت الأرض هي الأساس الجوهري للسيادة الصليبية فتركزت سياسة الملوك الصليبيين على امتلاكها، واستخدمت الحرب وسيلة سياسية من أجل التوسع أو الدفاع عن ممتلكاتها في المنطقة العربية[٥].

دور رجال الدين الصليبيين في تأسيس المستوطنات

لقد كان لرجال الدين الصليبيين دورٌ هامٌ في السياسة الاستيطانية ويبرز ذلك الدور بوضوح عندما قام الأمير جودفري البويوني بمنح كنيسة القيامة اكثر من عشرين قرية في حدود بيت المقدس، وقد استغل رجال الدين الصليبيين في كنيسة القيامة تلك المنحة بإنشاء مستوطنات صليبية دينية في بعض تلك القرى، فكانت قرية البيرة[٦] الهدف الأول الذي اختاروه لإنشاء أولى مستوطناتهم مكانها،

---

[١] الرام:قد يكون اسمها تحريفا من الرامة بمعنى المرتفعة عرفت بذلك الاسم في العهد الروماني،وذكرها الصليبيون باسمها الذي حرفه العرب إلى الرام. ينظر:حسين لوباني الداموني، معجم أسماء المدن والقرى الفلسطينية(مركز باحث للدراسات، رام الله:٢٠٠٣م)،ص١١٦.

[٢] قلندية: ذكرها الصليبيون باسم KaIendie وهو اسمها الحالي. ينظر: نفسه، ص ٢٠٣.

[٣] عطارة: أطلق عليها الصليبيون Atara Beret. ينظر: نفسه، ص ١٧٧.

[٤] البيشاوي، " دراسة مقارنة "، ص ٩٩.

[٥] هيثم كيلاني،" الصليبية والصهيونية:دراسة مقارنة "(مجلة شؤون عربية،تونس:١٩٨٧م)،ع٥٢، ص٢٩.

[٦] قرية البيرة:حدد ياقوت الحموي الموقع الدقيق لقرية البيرة بين مدينتي القدس ونابلس. ينظر: معجم البلدان، ج١،ص٥٢٦؛ابن شداد،الاعلاق الخطيرة،ج٢،ص١٤٣،هامش(١)؛ عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع ، تحقيق: علي

على الرغم من أن القرية لم تكن مهجورة من سكانها المسلمين، وبطبيعة الحال قام رجال الدين في كنيسة القيامة بتهجير من بقي من سكان القرية المسلمين إلى مناطق أخرى قبل الشروع بتأسيس المستوطنة، وقد تم إنشاء تلك المستوطنة على وفق تدرج مرحلي إذ إن رجال الدين في كنيسة القيامة قاموا بتوطين مجموعة من الأوربيين في البيرة وزودوهم بقطع من الأرضي لكي يقوموا بزراعتها مقابل دفع ضريبة العشر لرجال الدين في كنيسة القيامة واقتسام المحاصيل التي تنتجها أراضي البيرة من المستوطنين[١] ويبدو أن مستوطنة البيرة قد اكتملت سنة ٥٠٩هـ/١١١٥م إذ قام روجر أسقف الرملة Roger Bishop Ramlch بمنح دير القديسة مريم قطعة أرض تقع أمام مستعمرة البيرة إلى جانب منزل يقع داخل اسوار المستوطنة، وهذا يفيد أن بناء المستوطنة كان قد اكتمل خلال تلك المدة بدليل وجود الأسوار والقلعة والمنازل متطلبات الحياة وجميعها داخل البيرة[٢].

والواقع أن معظم المستوطنين الذين استقروا في البيرة مدة طويلة كانوا من فئة الحجاج النصارى الذين قدموا من أوربا إلى الأراضي المقدسة الذين لم تتوافر لهم النقود الكافية من أجل العودة إلى بلادهم، ومن ثم شهدت مستوطنة البيرة توسعاً في الاستيطان الصليبي إذ بلغ عدد مستوطنيها حوالي مئة وأربعين أسرة، هذا فضلاً عن المسلمين الذين سكنوا معهم في الجهة الجنوبية الشرقية من المستوطنة وعملوا في الزراعة مقابل دفع ضريبة على المنتجات الزراعية[٣].

وقد امتازت مستوطنة البيرة بتنظيمها الإداري، ومن ابرز عناصر الكادر الإداري الرقيب Dispensator الذي كان عيناً ساهرة على الأعمال جميعها في

محمد البجاوي(دار المعرفة للطباعة والنشر،بيروت: ١٩٥٤م)،ج١،ص٢٤١.وتقع على بعد حوالي(٦كم) شمال القدس. ينظر: ثيودريش، وصف الاماكن،ص ١٢٤. أما الصوري فاكتفى بالإشارة إلى موقعها بالقرب من القدس. ينظر: تأريخ الحروب، ج٢، ص ٩٥١.

[١] البيشاوي، " دراسة مقارنة "، ص ٩٦.

[٢] البيشاوي،الممتلكات الكنسية في مملكة بيت المقدس الصليبية،(دار المعرفة الجامعية،الاسكندرية:١٩٩٠م)،ص١٨٥-١٨٦.

[٣] ماير، تأريخ الحروب، ص ٢٢٩-٣٣٠.

المستوطنة، وكان يقوم بأداء مهامه بتكليف من السيد الإقطاعي في المستوطنة، وتمثلت صلاحياته بمعاقبة المخالف إما بدفع غرامة مالية وإما بسحب الأرض منه، وفي بعض الأحيان كانت العقوبة صارمة تصل حد الطرد من المستوطنة وذلك بالاتفاق مع هيئة الإدارة المحلية في المستوطنة[١].

ومما يجدر ذكره ههنا أن مستوطنة البيرة كانت محاطة بالأسوار كما جرى بناء قلعة من أجل حمايتها من الأخطار الخارجية التي قد تتعرض إليها من قبل المسلمين، وقد أطلق الصليبيون على مستوطنة البيرة Magna Mahumeria بمعنى منطقة التعبد الكبرى أو المستوطنة الكبرى، وكانت سياسة رجال الدين الاستيطانية هي التي جعلت مستوطنة البيرة مستمرة في التوسع من حيث الأهمية طُوال القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي[٢].

وعلى الرغم من الأسوار والتحصينات التي تم إنشاؤها حول مستوطنة البيرة إلا أنها لم تستطع الصمود أمام الهجمات الإسلامية ففي سنة ٥١٨هـ/١١٢٤م قامت حامية عسقلان الإسلامية بمهاجمة مستوطنة البيرة وتمكنت من اسر الكثير من سكانها[٣].

وكان الغرض من إنشاء تلك المستوطنة القيام بالمهام العسكرية ومصداق ذلك ما ذكره الصوري عن انضمام قوة مؤلفة من خمسة وستين رجلاً من مستوطنة البيرة إلى الجيش الصليبي المرابط في مدينة غزة لمحاربة الناصر صلاح الدين الأيوبي، وأثناء هجوم القوات الإسلامية على مدينة غزة كانت قوة البيرة مكلفة بحراسة الباب الخارجي للمدينة والدفاع عنه غير أنها لم تتمكن من الصمود والمقاومة أمام الهجوم الإسلامي العنيف فقُتِل عدد كبير منهم، وأصيب آخرون بجروح[٤] أما بالنسبة للغرض الاقتصادي فان أراضي المستوطنة كانت تزرع بمحاصيل عدة،

---

[١] نفسه، ص ٢٢٩.

[٢] البيشاوي، " دراسة مقارنة "، ص ٩٦.

[٣] الشارتري، تأريخ الحملة،ص٢١٤؛الصوري،تأريخ الحروب،ج٢،ص٦٢٠.

[٤] تأريخ الحروب، ج٢، ص ٩٥١.

أما فيما يتعلق بالغرض الديني فيكفي أنها كانت خاضعة لرجال الدين الصليبيين الذين قاموا بإنشاء كنيسة ومحكمة كنسية داخل المستوطنة[١] حرصاً منهم على مصالح المواطنين الصليبيين المقيمين في البيرة، أقام لهم رجال الدين محكمة عرفت بآسم محكمة كنيسة القيامة Curie Sancit Sepulcre de Mahumeria ، وكانت اختصاصاتها معالجة القضايا المتعلقة بأفراد الطبقة البرجوازية الذين يعيشون في المستوطنة لدرجة أنها عرفت بالمحكمة البرجوازية، وكانت تلك المحكمة تعقد برئاسة المسؤول عن تدبير شؤون كنيسة القيامة في المستوطنة، وهو الرقيب الذي كان يقيم في المركز الإداري أو البيت الرئيس المعروف بالكوريا Curia[٢].

أما فيما يتعلق بفئات السكان الذين استقروا في مستوطنة البيرة فكان معظمهم من الأوربيين الذين شاركوا في الحملات الصليبية ولا سيما من فرنسا وإيطاليا وأسبانيا وفي سنة ٥٥٠هـ/١١٥٥م تم إحصاء نحو تسعين عائلة أوربية تقطن في مستوطنة البيرة أي ما يقارب ثلاثمئة وخمسين شخصاً، كما زاد عدد المستوطنين في المدة الواقعة بين سنتي ٥٥٠-٥٨٣هـ/١١٥٥-١١٨٧م، إذ استقرت خمسون عائلة جديدة في البيرة وبذلك اتسعت المستوطنة وحازت على شهرة واسعة، وكان هؤلاء المستوطنون يعملون في جميع المهن ولاسيما الحدادة والتجارة وصناعة الأحذية والبناء والصاغة فضلاً عن المزارعين الذين عملوا في الحدائق والبساتين[٣].

ومن المستوطنات الأخرى التي أقامها رجال الدين الصليبيين مستوطنة القبيبة[٤] في موضع يبعد حوالي(١١كم) شمال غرب مدينة القدس[١] وهناك من قال(١٤كم) وبلغ ارتفاعها حوالي(٧٧١م٢) عن سطح البحر[٢].

---

[١] البيشاوي، " دراسة مقارنة "، ص ٩٦ – ٩٧.

[٢] البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٢٨٦.

[٣] البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٢٨٧.

[٤] القبيبة:اسم مصغر لكلمة القبة واطلق عليها قرية قبة القدس. ينظر:الداموني، معجم أسماء، ص٢٠٠،ويوجد فيها الان كنيسة صليبية مهدمة، وتشتهر قرية القبيبة بزراعة أشجار الزيتون

وقد عرفت باسم Parava Mahumeria بمعنى منطقة التعبد الصغرى أو المنبر الاصغر والتي تمتعت بموقع استراتيجي هام نظراً لموقعها على الطريق الرئيس المؤدي من السهل الساحلي إلى مدينة القدس، ولذلك فقد كانت تقع على طريق الحجاج[٣] وكان بناؤها بعد سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م وقيل بعد سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م[٤].

أما فيما يتعلق بفئات السكان الذين استقروا في مستوطنة القبيبة، فكانوا من المواطنين الاوربيين الذين ربما جاءوا من المناطق نفسها التي جاء منها سكان مستوطنة البيرة، ولعلهم كانوا يعملون في حرف مختلفة كالحدادة والتجارة وصناعة الأحذية والبناء فضلاً عن العمل في مجال الزراعة والعناية بالحدائق والبساتين على أن ذلك لا يمنع من وجود بعض السكان من المسلمين والنصارى الشرقيين الذين كانوا يقيمون في المنطقة قبيل إنشاء مستوطنة القبيبة[٥].

وقد أقام رجال الدين اللاتين في كنيسة القيامة بعض المنشآت في مستوطنة القبيبة إذ تم الكشف عن مبنى كبير مزود بمخزن للحبوب، ويبدوا انه كان المركز الإداري في المستوطنة، ومقر إقامة الرقيب المسؤول عن شؤون رجال الدين في القبيبة وليس ذلك فحسب بل انشأ رجال الدين اللاتين كنيسة في مستوطنة القبيبة، وكانت تماثل كنيسة مستوطنة البيرة، إذ إن أجزاءَها الثلاثة كانت نصف دائرية فضلاً عن

والتين والعنب، ينظر: مصطفى مراد الدباغ،بلادنا فلسطين،(دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت: ١٩٦٥م)، ج٨، ق٢، ص ٩٨-١٠٠.

(1) Lyons , Saladin , p. 272.

(٢) الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٨، ق٢، ص ٩٨.

(٣) البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٨٨ ؛ " دراسة مقارنة "، ص ٩٧.

(٤) ابن شداد، الاعلاق الخطيرة، ج٢، ص ١٣٩، ١٤١.

(٥) البيشاوي، الممتلكات الكنسية، ص ٢٨٨.

صحن الكنيسة والجناحين، وكما قام رجال الدين بإنشاء محكمة كانت تعقد برئاسة الرقيب أسوة بتلك التي شيدت في البيرة[١].

أما بالنسبة للأغراض التي أقيمت من أجلها المستوطنة فليس لدينا دليلٌ قاطع يُثبت ذلك، ولكن من المرجح أنها كانت تقوم بمهام عسكرية واقتصادية ودينية كما هو الحال في مستوطنة البيرة.

ولم يقتصر دور رجال الدين على إقامة المستوطنات فقط بل اسهموا بشكل أو بآخر في عملية تهجير السكان الاصليين من قراهم إلى مناطق أخرى والدليل على ذلك عندما أصروا على ترحيل سكان قرية كفر مالك[٢] إلى قرية بيت فوريك[٣] وقد استجاب الملك الصليبي لطلبهم، وأمر بتهجير سكان القرية بعد أن حصلوا عليها كمنحة من الملك، ولم يكتفُ بذلك بل قاموا بتوطين مستوطنين أوربيين في قرية كفر مالك بدلاً من سكانها الأصليين وبطبيعة الحال فان عملية التهجير لم تتم بسهولة، فقد حدثت مقاومة أدت إلى مقتل بعض سكان قرية كفر مالك الذين تصدوا للمستعمر الصليبي[٤].

وأخيراً فان عملية الاستيطان الصليبي في الأراضي المقدسة كانت قد بدأت بعد فترة من السيطرة الصليبية على تلك الأراضي، والواقع انه لم يكن في حسابات الصليبيين أو في تخطيطهم الإقامة الدائمة والاستيطان في تلك البلاد منذ

---

[١] البيشاوي، " دراسة مقارنة "، ص ٩٧.

[٢] كفر مالك:قرية ذكرها الصليبيون باسم Caphar Meleck، وسبب التسمية غير معروف. ينظر: الداموني، معجم أسماء، ص٢١٥. وتقع في أقصى جنوب نابلس، وهي تبعد عنها حوالي(٣٣كم)، وتشتهر قرية كفر مالك بحقول الزيتون والعنب واثمار اللوز والتين، فضلاً عن الحبوب والخضراوات بأنواعها المختلفة. ينظر:الدباغ، بلادنا فلسطين، ج٨، ق٢، ص ٣٠٩-٣١١.

[٣] بيت فوريك Beit Furik أو بيت فوريق ومعناها بيت الزرع.ينظر: الداموني، نفسه، ص٤٥. وتقع في جنوب شرق نابلس وتشتهر بزراعة الحبوب والقطن والخضراوات. ينظر:الدباغ، نفسه،ج٣، ق٢، ص ٣٩٢.

[٤] البيشاوي، " دراسة مقارنة "، ص ٩٧.

بداية خروجهم من بلادهم، ومن المرجح أن القوى الصليبية جميعها في مملكة بيت المقدس اتفقت على أهمية الاستيطان ونفذت المشاريع الاستيطانية المختلفة في البقاع جميعها، ومن المحتمل أن اختيار الصليبيين لمواقع الاستيطان لم يكن اختياراً عفوياً وانما جاء بعد دراسة متأنية لكي تؤدي كل مستوطنة الدورالذي رسم لها، ومما يؤكد ذلك كان اختيار موقع مستوطنة القبيبة على الطريق المؤدي من الساحل إلى مدينة القدس، ربما كان من أجل خدمة الحجاج النصارى هذا فضلاً عن الخدمات الحربية والاقتصادية التي تؤديها المستوطنة، أما عن إقامة المستوطنة في موقع الداروم فكان الهدف منه مراقبة الحدود المصرية[١] وفضلاً عن ذلك كله كان وجود المستوطنات الصليبية في الشرق يعتمد على أوربا ليس من أجل الهجرة فحسب وإنما من أجل العامل المادي للحصول على الأموال، فقد ذهب العديد من الأوربيين إلى الشام ليتخلص من قيود العبودية والرق ورغبة في العيش في ظل حياة جديدة في أرض غير مألوفة لديهم[٢]، فاستقروا في مستوطنات كانت بمثابة قواعد لترسيخ السيطرة الاستعمارية في المنطقة العربية من أجل تطوير النشاط الاقتصادي فضلاً عن أنها مساكن للإقامة والعيش ومراكز إدارية وثكنات للجيش ومراكز للسلطة والقيادة[٣].

ونخرج من تجربة الاستيطان الصليبي في فلسطين بالنتائج الاتية:

اولاً: ان الاستيطان هو نوع من انواع الاستعمار واخطر انواعه، ففي حالة احتلال الارض والتركيز على الهجرة والتشجيع عليها واقامة المؤسسات يصبح اجتثاث واستئصال الاستعمار امراً في غاية الصعوبة.

ثانياً: ان مراحل الاستيطان الصليبي بدأت الهجرة الفردية والجماعية التي سعت للسيطرة على الاراضي وغزو المنطقة المستهدفة وانتزاعها بالعنف واقامة السلطة والكيان الاستيطاني وفرض الامر الواقع بالقوة.

---

[١] نفسه، ص ٩٩ – ١٠٠.

[٢] براور، عالم الصليبيين، ص ١٠٤.

[٣] سميل، الحروب الصليبية، ص ٢٧.

ثالثاً: ان التجربة الاستيطانية الصليبية في فلسطين لم يقدر لها ان تنشأ وتستمر في الاراضي الاسلامية لولا التجزؤ والانقسام وتفكك الموقف السياسي للقوى الاسلامية وتقاعسها في الدفاع عن الاراضي الاسلامية ومقدساتها، وهذا يعني ان ضعف الموقف السياسي الاسلامي كان سبباً في بروز قوة الصليبيين وتفوق قدراتهم العسكرية.

رابعاً: يعود فشل تجربة الاستيطان الصليبي في فلسطين وانهيار الاستعمار الاستيطاني الاوربي الى ثلاثة عوامل:

العامل الاول: نقص العنصر البشري في صفوف الصليبيين، فقد كانت الكيانات الصليبية في بلاد الشام بصورة عامة وفلسطين بصورة خاصة مستعمرات حكام لا مستعمرات لاستيطان السكان بينما كانت فئات الشعب في الريف من المسلمين أو النصارى الشرقيين في بلاد الشام.

العامل الثاني: عامل المناخ وعدم تكيف الصليبيين له وقلة الطعام واستمرار حالة الحرب والحصار بشكل دائم كان له اثر كبير في تقليص موجات الهجرة التي لم تكن كافية لان تجعل المستوطنات كيانات سياسية حية.

اما العامل الثالث: فهو اعتماد المسلمين الجهاد وتكاتف ابناء المجتمع الإسلامي وتفانيهم لطرد المحتلين الصليبيين ابتداء بجهود القادة عماد الدين زنكي مروراً بابنه نور الدين وصولاً الى الناصر صلاح الدين الايوبي كان له ابلغ الاثر في تقويض دعائم ذلك الكيان الصليبي الطارئ وافشال المخططات الاستيطانية وتخليص المقدسات الاسلامية من براثن الصليبيين.

Abstract

Crusade Settlement in Palestine

Mus'ab H. Al-Zaidy(*)

Crusade settlement in Palestine is regarded as one of the important issues that tackles the Crusade existence in Palestine. The signicance of this subject lies in shedding lights on the nature of the settlement movement and the role of the politiacl and religious powers in establishing a number of settlements.

The present paper sheds light on the crusade settlement in Palestine. It studies the subject though studying three points, namely, encouraging the immigration to Palestine, the role of the crusade kings and the churchmen in establishing the settlements.

(*) Lecturer- College of Islamic Studies/ University of Mosul.